الى شباب القصصيين

# كيف احترفت القصة

قصة الانسة «ج. ب. ستيرد»

للاستاذ احمد فتحى

في تعاون خبيث بين عقلي الواعي والباطن ، يبدو لي دائماً أنني كنت — حتى الثامنة عشرة — قد أرصدت عمري كله لاخراج قصتي الأولى . ولكنني حين أرجع البصر في الموضوع ؛ أتبين أني لم أخرج هذه القصة الأولى إلا بعد أن بلغت الحادية والعشرين . وإن أبعث للانسان على استدعاء صور الماضي أن يكون قد كتب قصته الأولى وهو لم يودع من عمره سوى ثمانية عشر ربيعاً ، وأن تكون قصته تلك على جانب من الأمانة الفنية، كما أذكر من أمر قصتي الأولى « يانتومايم » !

وحين أنظر الآن إلى القصص الأولى لكثير من الكتاب المعاصرين ، أجدها تتسارى في السطحية والضآلة وإظلام آفاق التفكير . فما أجد بينها واحدة كانت خليقة أن تبشر بخير ، غير أنها جميعاً تنطق أفصح النطق بما أحب أن أدعوه « فوضى السخرية ! » ... والحقيقة أنني كنت أميل كثيراً إلى القصص الساخر إلى ما قبل ظهور قصتي الأولى ؛ بنوات . وهذا اللون الساخر نفسه من ألوان الفن القصصي ، كان صورة من أظهر صور العصر . وكم كنت أرقص طرباً كلما قرأت شيئاً لأحد من أعلامه ، ولا سيما كاتب « برونللا » وهو «لورنس هاوسمان» وكاتب « مهرج العصر » وهو « إرنست داوسن » !

ولقد كانت تلك سني حياة ساخرة عابثة مرتجلة ! .. ولربما أسفت عليها الآن وحننت إليها حنيناً ...

وتأثرت بطراز هذه القصص الساخرة فكتبت على غرارها كثيراً من القصص ، أذكر منها واحدة اسمها « بائع الأحلام »

وكان هنالك كاتب اسمه « بارى » وآخر اسمه « لوك » وإني لأذكر كيف كان أبي في أحيان كثيرة يقول لي « آه ... حينما تستطيعين أن تكتبي مثلما يكتب « لوك » ثم يهز رأسه في قنوط؛ دون أن يتم العبارة ..!

على أن أعلى مثال للقصة الساخرة كان ولم يزل ؛ ماثلاً في « كرنفال كوميتون ما كنزى » وقيمتها الخالدة ترتكز على ما فيها من دراسة صادقة حية لشخصية البطل ، ولكني لم يكن يعنيني كثيراً منها ومن أمثالها من قصص هذا الطراز الساخر سوى بعض العبارات الملونة التي تتمتع بقسط أوفى من قوة الافصاح وصرامة التعبير . وإني لأذكر حين كنت في مستقبلي أتحدث إلى إحدى صاحباتي ممتدحةً قصة « الكرنفال » كيف أن صديقتي قالت في أسلوب رائع من النقد الفني « أجل ... هذا المؤلف يستطيع أن يكسو الصفحة من الورق منظراً طبيعياً ساحراً » ... وقد أغلى هذا من طمعي ، وحسبتني مستطيعة أن أكسو — أنا الأخرى — صفحتي منظراً طبيعياً ساحراً ! جعلت أتخيله ، بألوانه ، وظلاله ، ومشاهده ، ولم تكن هذه المحاكاة يسيرة ولا قريبة المنال ، فأن التزامها كان يقتضيني ثلاثة أمثال ما يلزمني من الوقت !

كنتُ إلى أن بلغت الحادية والعشرين ، أعنى بكتابة المسرحيات وحدها . لأنني كنت أودُّ حينذاك أن ألعب أدواراً في مسرحياتي إذا أخرجتُ ! وكذلك كنت أكتب الأشعار ، ومن قصائدي واحدة اسمها « هنا مضحكون آخرون » لا أزال أرويها إذا ألحَّ عليها طلب حار ؛ ولكنه لا يوجد ! كما أنني كتبتُ ثلاث أقاصيص قصيرة حملتها بنفسي إلى محرر « المجلة القصصية » وكان في ذلك الوقت « ر. سكوتلاند ليدل » . ولقد كان — على غير توقُّع مني — إنساناً لطيفاً . انصرفتُ من حضرته بعد أن وعد بنشر أقاصيصي ، وبعد أن أمضينا وقتاً طيباً في حديث طيب . وفي بضعة الشهور التالية لم أسمع شيئاً عن هذه الأقاصيص ، ثم لقيت الرجل مصادفةً في شارع « أكسفُرد » وما كاد يراني حتى أخبرني بأن أقاصيصي جميعها قد ظهرت في مجلته ، وأنه كان الأيسر أن أترك له عنواني كي يبعث إلي بثمن ما نُشر لي !

وبعد ، فقد أستطيع التحدث عن بدء كتابتي « القصة » بمعناها الصحيح . ولحسن الحظ أن الثامنة والأربعين تنظر إلي الحادية والعشرين بعطف وإشفاق ، وفي غير فزع ! كان الدافع لي على الكتابة هو تلك الخاتمة الفاجعة الأليمة التي انتهى بها « حُبِّي » الذي حسبت أن لا نهاية تنتظره ! والذي كان غراماً شعرياً إلى غير حد !

كان « تشارلس » غضّ السنّ ، جذاباً ذكيّ الفؤاد . . . التقينا فى بعض حدائق « ميدنهد » ثم أهدى إلى نسخة من كتاب «لورنس» المسمى «ما كياثيلى الجديد» . ذلك الكتاب الذى ترك فى نفسى أبعد الأثر بفصوله الرائعة ، وبأنه هدية من حبيب القلب !

كان مغرماً بالطائرات ، ولقد حلق مرة على متن إحداها فى مساء ساحر ، وعدنا إلى بيته بعد أن انتصف الليل بساعتين ، ولقد تلقانى قومه فى شىء من عدم الارتياح ، والشك فى مستقبلى ككاتبة ! وعلى أى حال فان والدته من فورها قد أخذت تعلمنى كيف ترقع سراويل الرجال !

دامت خطبتنا عاماً . ولم يكن هنالك من المتاعب سوى افتقارى إلى المرانة فى البيت . فقد نشأت فى بيئة فتيات يهوديات من عائلات طيبة . ولم تكن هذه البيئة دينية على وجه الاطلاق. وإنما كانت تتميز بالزهد وتتشبث بأهداب الطهارة . وإنى لأذكر العبارة التى كانت الفتيات يستعملنها دائماً فيما بينهن ... « إنك لن تظفرى بزوج أبداً مالم تغالى نقية . . . وعذراء ! » وربما لم تكن هذه العبارة تعنينى وحدى ، ولكنها كانت تغنى فى جوى أنا ... ربما ؛ حقاً ؛ إنها لم تزل تغنى فى جو حياتى إلى الآن ! ..

إن شباب هذه الأيام ، على قلة ثرثرتهم ، يعرفون جيداً كيف يجيبون على سؤال شاب حار الدم ، خطب لنفسه فتاة يحبها ، وقد أمضى وقتاً طويلا وهو لا يستطيع الاقتران بها لعجزه عن التغلب على بعض العوائق الاقتصادية ! . أجل ، إن شاب اليوم يستطيع أن يقطع برأى حاسم فى مثل هذه المسائل. ولكن ، حين عرضت لى نفس الظروف لم أستطع أن أصنع شيئاً ، بل لم أعلم ماذا يراد أن يصنع بى . وقد ندر ما كنت أتحدث وخطيبى فى هذا الصدد ، بصفة غير مباشرة . وهذا من أظهر الفروق الملحوظة بين تلك الأيام ، وبين أيامنا هذه !!

واعترف لى الفتى بأنه كانت له عشيقة ، امرأة جميلة ، ولكنها ليست « خاصة » ! وكانت تكبره فى السن .

« بالتأكيد ياتشارلس ، كان هذا قبل الآن ... » هذا ماقلت له ، دون أن أعلم أننى كنت وراء مطلب عسير ، هو النقاء التام فى الجسد ، كما فى الروح ! !

لم يرض أبى عن هذه الخطبة من أول الأمر ، وكثيراً ماكان يقول لى « ليس فى خلق هذا الفتى شىء من الثبات ، هل هو على شىء من الثبات ؟ كلا ! .. »

وكنا نلتقى ، كعاشقين مضاربين ، فى ظل استياء أبى وتجهمه . ومضى عام كامل ... وكان « تشارلس » مهندساً بارعاً ولكنه كان قليل الصبر على عمله المسئم الذى لم يكن يبشر باتساع فى الرزق !

وفى بعض الأمامى ، حيث كنت أعيش معه ومع أمه ، صحب عشيقته إلى « دروري لين » وكان الصباح التالى مقروراً جهما . وكذلك كنت . وحين أقبل المساء اعترف لى بأنه لا يستطيع أن يحتفظ بأمانته لحبي أكثر من ذلك . وقذفني ببعض الألفاظ المؤلمة ! فأخذتنى المفاجأة شر أخذة . ثم افترقنا بوسيلة تمثيلية أكثر مما كان ينبغى ! !

كيف أعالج بقية أيام حياتى ؟ ! . هذا هو السؤال الذى ألح على خاطرى بعد فشل غرامي العظيم ! ولقد وثب إلى ذهنى أننى لو استطعت أن أكتب قصة من روائع الفن فسأبعث الحسرة والأسف فى نفس من نأى عنى بجانبه ...

فى مخدع أنيق فى « برايتون » ، وبغير تحضير تقريباً ، بدأت كتب السطور الأولى من قصتى الأولى .

كان على حوائط المخدع أستار حريرية مسدلة ، وكانت نيران الموقد تتلظى فى لهب ساطع براق . وإنى لأذكر القليل من ظروف كتابة « بانتومايم » وإن طريقتى الآن هى أن أظل أدور حول موضوع قصتى شهوراً ؛ قبل أن أبدأ فى تسجيل فصولها ؛ مع تسطير بعض الخواطر المبعثرة على أوراق منفصلة أجمعها فى النهاية فتكوّن هيكل الموضوع الناضج الذي أخرجه للناس . وفى ذلك الحين لا بد أن أكون بدأت تسجيل فصول قصتى مباشرة ، لأسرى عنى الألم ، وأزجى الفراغ الذى كان يملأ حياتى ، والذى كنت أشعر به دائماً .

وعقدت فى تلك الأثناء صداقة وثيقة مع فتاة فى مثل سنى اسمها « روز آلاتينى » هى اليوم تحترف الكتابة باسم « لوسين ونيرايت » وكانت هى أيضاً قد بدأت كتابة قصة . وكثيراً ما كنا نكتب مجتمعتين قلماً إلى قلم ! وكثيراً ما كان يحدث فى تروضنا بالمشى أن نقف بأسماء الناشرين المطلقة على دورهم ؛ نفكر أى دور النشر الكثيرة هذه يحسن استقبالنا بعد حين ؟! ولقد

استقر رأينا على دار « بودلى هد » أخيراً ...

وحدث أن كنا فى بعض خلواتنا الفنية نكتب فى جوحالم حين طالعنا وجه رجل أبيض الشعر معقود الحاجبين ، عرفنا فيه « جون لين » ولم نشأ أن نصدمه باخباره بأننا نكتب «قصتين» ستعرض عليه أمر نشرها فى القريب !

بعد فراغى من كتابة قصتى الأولى « بانتومايم » بعثت بها إلى والد « مارجريت هالستان » الذى كان قد أرضته مسرحية كتبتها منذ أربعة أعوام تقريباً حينما كنت فى « الأكاديمية المسرحية » واسمها « خادم الأجير » كانت مفزعة حقاً . وكانت له فى نشرها وجهة نظر خاصة .

وقرأ المستر « هرتز » قصتى فزعم أنها عمل فنى من الطراز الممتاز، وكان فى ذلك حسن الظن جداً، ولكنه لم يكن مصيباً . كان فى القصة الاجادة ولكنها لم تكن ترتفع إلى الدرجة الأولى . بل إنى لأقرر الآن أنها لم تكن أكثر من بشير بالتقدم . ولو أنه أتيح لى — الآن — أن أكتب رأيى فى نفسى — حينذاك — لما زدت على قولى : « لهذه الكتابة استعداد حسن ، ولا يبعد أن تنبغ إذا استطاعت أن تقهر أخطاءها الشنعاء ! »

على أن الرجل قد كتب إلى يقول إنه قد أظهر على قصتى صديقاً له يدعى المستر « جيمس دوجلاس » وقد تفضل هذا بدوره فكتب إلىّ مطرياً يقول إنه قرأ القصة ، ثم دفع بها إلى صديقه « جون لين » . وظننت بذلك أنى أصبحت « فى عداد المؤلفين » الذى تعتمد عليه دار « بودلى هد » للنشر ! ولكن « جون لين » لم يلبث أن أعاد إلى قصتى مصحوبة بقوله « إن هنالك ناشرين رضون بأن يقبلوا هذا الهواء المزركش — على حد تعبيره — ولكن دارنا لا يمكن أن تفعل ذلك ! »

وانزعجت كثيراً ... فان قرار الرجل كان يبدو نهائياً بقدر ما كان يبدو فيه من تحقير ! ولم يكن لى من قوة الروح ما يبرر لى الظن بأن « جون لين » لم يكن يدرى عم يتكلم ! ولم يكن يتبين العمل الجيد حين يقدم إليه . أو لم ينشر « الكتاب الأصفر » ؟ ؟ أو لم يكشف الستار عن مئات العبقريات المغمورة

وعلى أى حال فانى لا أكاد أذكر من الذى نصح لى بأن أبعث بقصتى إلى « كالثروب » وأن أسأله عما إذا كانت رديئة إلى هذا الحد !

ولم أكن لقيت أبداً أكبر الأخوة الذين يحملون اسم « كالثروب » ولكن ، عندما كنت فى السادسة عشرة كان « دونالد كالثروب » ممثلا محترفاً ، وكان بطلا فى نظرى ، وكان فوق ذلك يهوى واحدة من زميلاتى بالدراسة اسمها « نيللى » وقد رغب وإياها فى إخراج إحدى مسرحياتى ، ولكن أخاه الاكبر « ديون » نصح له بالعدول ، وإنما وعد بمساعدتى إذا كتبت خيراً منها فى المستقبل !!

ولقد تحقق وعده على الأيام . إذ قرأ لى « بانتومايم » وما لبث أن كتب لى فى تظرف ورقة يقول إنه أوصى بى وصاة خاصة عند الوكيل الأدبى لأعماله ويدعى « جيمز بنكر » وكلفه أن يرعانى . غير أننى ، فى قلة صبرى وقلة تجاربى . لم يكن يرضينى منه أقل من أن يقول لى «إن الدنيا تحت قدميك جميعاً. تفضل ياعزيزتى يسى ستيرن » !!

ودعانى المستر « بنكر » للقائه . فلما ذهبت إليه وسألته سبب هذه الدعوة ، قال إنهم يريدون أن يكسبوا مالاً عن طريقى ! وذكر لى أنهم يتبعون نفس الطريقة مع سواى وعدد لى أسماء اطمأنت إلى سماعها ، وتركت له القصة ، وجعلت أرتقب المستقبل !

واتفقت نهائياً على نشر القصة فى سبتمبر ١٩١٣ ، وظهرت للناس فى يناير ١٩١٤ . ولم تكن هذه سنة حسنة ليبدأ أى إنسان حياته العملية !

وأنا وإن لم أقرأ القصة قراءة كاملة منذ عام ١٩١٤ ، إلا أننى كثيراً ما أتصفح بعض فصولها بين الفينة والفينة ، فأجد فيها كثيراً من الهنوات التى أصبحت أنزه عنها أعمالى الأدبية ، غير أننى أجد فيها دائماً أشياء تبعث على الارتياح

وكثيراً ما أصادف من قرائى من يقول بأن « بانتومايم » قصتى الأولى والأخيرة ، وأننى لم أكتب مثلها أبداً !

بل قد يسألنى بعض القراء « متى أكتب » قصة جيدة مثلها ؟ فأبتسم ، وأقول « أرجو... فى القريب » !

احمد فتحى